فنّ القصّة

أولا: مصطلح القصّة (Récit): تطلق كلمة القصّة عموما على سرد وقائع ماضيّة. ومتماسكة من حيث المضمون، ومؤثّرة من حيث طريقة العرض الفنّية والقصّة نظام سردي مؤلّف من ثلاثة مستويات: (الحكاية وهي الحدث، وفعل السّرد وهو عمل الرّاوي، والخطاب وهو كلام الرّاوي)[1]. والقصّة بمفهومها الحديث، أنّها جنس أدبيّ له قواعده وأصوله الفنّية، وغايته الإنسانيّة. لم يعرفها الأدب العربي القديم، وظلّت مجهولة عنده حتّى العصر الحديث بعد تأثّره بالآداب الغربيّة في عصر النّهضة غير أنّ جذورها وجدت منذ العصر الجاهلي في صور قصص قصيرة ترويها كتب الأدب، والسّير، والتّاريخ[2].

فالقصّة «مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو أحداث عدّة، تتعلّق بشخصيّات إنسانيّة مختلفة تتباين أساليب عيشها وتصرّفها في الحياة على غرار ما تتباين حياة النّاس على وجه الأرض، ويكون نصيبها في القصّة متفاوتا من حيث التّأثر والتّأثير»[3]. فتقوم القصّة «بسرد أحداث تاريخيّة أو خياليّة، ومن شروطها أن تهدف إلى غاية أدبيّة فنيّة تبلغ إليها عن طريق الوحدة الموضوعيّة، والتّحليل النّفسيّ. والمتعة الأخّاذة والانشاء

---

[1] ينظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرّواية (عربي، إنجليزي، فرنسي) ص133.

[2] محمد رمضان الجربي، الأدب المقارن، ص124.

[3] محمد يوسف نجم، فنّ القصّة، نشر وتوزيع دار الثّقافة، بيروت، لبنان، ط5، 1966 ص9.

المتين، وتكون القصّة شعريّة أو نثريّة»[1]. ولذلك سنقف على فنّ القصّة الغربيّة، ومراحل تطوّرها ثمّ القصّة العربيّة بتحديد الدّراسات الحديثة حولها.

ثانيّا: القصّة في الأدب الأوربي:

تخلّصت القصّة في العصر الحديث من الأمور الغيبيّة وخلصت لمعالجة الإنسان وشؤونه، وكما تخلّصت من الموضوعات التي أساسها الخيال المحض فصارت تعالج الواقع الإنسانيّ النّفسي والاجتماعي على اختلاف في مذاهبها الفنّية الحديثة[2].

والقصّة مثل المسرحيّة يتوفّر فيها الحدث، ولكن القصّة تهتمّ على الأخص بالوصف، ليس وصف الأشياء وإنّما وصف الحياة والأشخاص ومجال الأحداث التي يبرّرها، وتهتمّ كذلك بصراع الشّخصيّات النّفسي في هذا المجال لتحقيق ما يقومون به من أعمال، والقصّة – في معناها الحديث– أهميّة حاضرة حتّى إن عالجت الماضي، لم يكن ذلك تغنّيا بالماضي فحسب كما في الملحمة مثلا، بل لابدّ أن يكون لهذا الماضي أهميّة حاضرة أيّ أنّه ماضينا الذي ينير جوانب حاضرنا أو يكون عامّا لقضاياه أو يدفع به إلى الأمام، والقصّة في خصائصها العامّة التي أشرنا إليها حديثة النّشأة، وقد أخذناها عن الآداب الأوروبيّة وتأثّرنا بمذهبها وأصولها الفنّية

---

[1] حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص722.

[2] ينظر: محمد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، دط، 1997، ص463.

ثم إنّ تلك الآداب لم تخلقها كما هيّ الآن معزولة عن بعضها البعض بل تعاونت كلّها في ذلك أجيالا وقرونا طويلة[1].

ثالثا: تطوّر القصّة في الآداب الأوروبّية:

عبّرت القصّة الأوربّية عن جوانب غيبيّة وخياليّة، ففي نشأتها الطّويلة كانت تختلط فيها الحقائق الإنسانيّة بالأمور الغيبيّة، وكانت تجمع في الخيال فتبعد كثيرا عن واقع الإنسانيّة وقضاياه، كما كان لا يفرّق فيها بين ما هو ممكن وما هو مستحيل[2]، «قد تمثّلت فيها منذ نشأتها عناصر مسرحيّة في إنشادها ومواقفها، وكان فيها كذلك عنصر قصصي، كما كان يفهم من معنى القصّة في القديم. فوجدت في الملحمة عناصر مهّدت للنّثر القصصيّ الخياليّ في الأدب اليوناني وتمثّلت هذه العناصر عند "هوميروس" في ربطة داعيّة الألم (Pathos) بالمخاطرات التي قامت بها الشّخصيّات في الأوديسا، وقد مهدّ كذلك للقصص الخياليّة النّثرية – ما قام به شعراء المآسي اليونانيّة منذ "يوربيدس" من ربطهم العنصر العاطفي بالأحداث التي يسوّقونها، غيبيّة كانت أم إنسانيّة»[3]. فمن خصائص الملحمة أنّها قصّة تعتمد على سرد حوادث عدّة، يعرّفها "أرسطو" بقوله: «هيّ قصّة بطولة تحكى شعرا. تحتوي على أفعال عجيبة أيّ على حوادث خارقة للعادة، ومنها يتجاوز

---

[1] محمّد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، ص463.

[2] المرجع نفسه، ص،ن.

[3] المرجع نفسه، ص464.

الوصف مع الحوار، وصوّر الشّخصيّات والخطب. ولكن الحكاية هي العنصر الذي يسيطر على ما عداه، على أنّ هذه الحكاية لا تخلو من الاستطرادات وعوارض الأحداث، وفي هذا تفترق الملحمة عن المسرحيّة والقصّة افتراقا جوهريّا»[1]. فالوصف عنصر بارز في الملاحم من خلال تصوير الشّخصيّات والأحداث.

ومن جهة أخرى عمد المؤرّخ اليوناني "كسينوفون" (Xenophon) وهو المؤرّخ اليوناني الثّالث بعد "هيرودوتوس" (Herodotus)، و"توكيديدس" (Thukydides) إلى خلط الخيال بالتّاريخ فيما يشبه القصّة في تاريخه لملك الفرس"كورش" في كتابه: (كوروبيديا)، وظهرت بشائر القصّة في الأدب اليوناني في القرن الثّاني، والثّالث بعد الميلاد، فكان الأدب القصصيّ آخر أجناس ذلك الأدب ظهورا، لكنّه ظلّ مع ذلك مختلطا بالمعاني والمخاطرات الغيبيّة، والسّحر، والأمور الخارقة، ونستدل هنا بقصّتين هما: "ثياجينيس"[2] و"خاركليا" أو أسير الأحباش، ثمّ القصّة الرعويّة: "دافنس"، و"خلويّة" ويتمثّل النّموذج العام لأحداث هذه القصص في افتراق حبيبين تفصل بينهما مخاطر مروّعة ومنافسات خطيرة. يفلتان منها بطرق عجيبة غير مألوفة ثم تختم ختاما سعيدا[3]. و«أمّا في الأدب الرّوماني فظهرت القصّة أوّل مرة في أواخر القرن

---

[1] محفوظ كحوال، فنّ الملاحم (الأصول، النّشأة، التّطور) إلياذة هوميروس، نوميديا للطّباعة والنّشر والتّوزيع، قسنطينة، الجزائر، دط، 2009، ص3.

[2] محمد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، ص465.

[3] المرجع نفسه، ص466.

الأوّل بعد الميلاد على نحو مخالف للقصّة اليونانيّة في بادئ الأمر كما يتجلى ذلك في قصّة "ساتريكون" التي ألّفها "بترنيوس" ثمّ تأثرت بالقصص اليونانيّة، ومن أهمّ القصص التي يمثّل بها التّأثر اليوناني "أبوليوس" (Apuleuis) في مسخ الإنسان إلى حيوان ثم إعادته إلى حاله الأوّل»[1].

و«في ظلّ هذا كلّه ظلّت القصّة قريبة من أصلها الملحمي بأحداثها غير المألوفة، فكان القاص ينهج المنهج الملحمي في نزعته إلى الخيال بعيدا عن الواقع، فقد سبقت القصّة الخياليّة القصّة الواقعيّة إلى الوجود، كما سبق الشّعر النّثر الخطابي إذ أنّ المرء كان يتخيّل ويصف ما يتخيّل أسهل من أن يصف الواقع ويعالجه، وكانت الجماهير في عصور الإنسانيّة الأولى تهتمّ بالأحداث العجيبة، والخياليّة أكثر من أحداث الواقع فظلّت نزعة القاصّ الغيبيّة أو الأسطوريّة تصبغ القصّة صبغة شعرية. وتجلّت هذه الصّبغة قديما في قصص المخاطرات، كما كان يفهمها اليونان؛ حيث كان يختلط عالم النّاس بعالم الغيب ويطغى الخيال على حدود العقل»[2] .

وهكذا كان شأن القصص في الآداب الأوروبيّة منذ عصر النّهضة فقد نشأت ونمت معتمدة على ما وصل إليها من التّراث الشّرقي، والأدب اليوناني الرّوماني، وتأثّرت كذلك بالرّوح المسيحيّة، وفي هذا العصر كذلك سبقت قصص المخاطرات غيرها من القصص، وكثيرا ما اعتمدت

---

[1] محمد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، ص466،467.

[2] المرجع نفسه، ص467.[1]

على الأساطير والأرواح على نحو ما عرف في الأدب اليوناني والرّوماني ومن أشهر القصص العالميّة التي اشتهرت في ذلك العصر قصّة "فاوست"[1].

ولمّا «كان عصر الاكتشافات والرّحلات البعيدة بحرا وبرّا، ظهرت قصص الرّحالة وحكايات أخبارهم في جميع الأمم المتحضّرة. وواصل فن القصّة ارتقاءه مع تقدّم العصور، وتخصّص الأدباء في هذا النّوع من الكتابة واتّضحت معالمه شيئا فشيئا وقررّت قواعده، إلى أن صار في القرون الأخيرة من أرقى الفنون وأروعها وأكثرها انتشارا»[2]. ومن الملامح الغربية للقصّة وتطوّرها في الأدب الأوربيّ، تأتي القصّة العربيّة الحديثة التي تأثّرت بالمعايير الفنّية، فنضجت هي الأخرى تدريجيّا في الأدب العربي.

---

[1] محمّد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، ص 469،470.

[2] حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص724.